فبينما هما يأكلان إذ أقبل رجل أشعث الرأس قد طالت أظفاره وساءت حاله فجلس منزجر
الكلب ومد يده فناولته المرأة طعاماً فأكل فلم يغن عنه شيئاً فمد يده فقالت القينة
إن يعط العبد كراعاً يطلب ذراعاً فأرسلتها مثلاً ثم ناولت صاحبيها من شرابها ثم
أوكت سقاءها فقال عمرو بن عدي

صددت الكأس عنا أم عمرو ... وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شر الثلاثة أم عمرو ... بصاحبك الذي لا تصبحينا

ويروى تصد الكأس ويروى أن البيتان لعمرو بن كلثوم التغلبي ويقال إن عمرو بن كلثوم أدخلهما في شعره فقال الرجلان له من أنت فقال إن تنكراني فلن تنكرا نسبي أنا عمرو بن عدي فقاما إليه فسلما عليه وقلما أظفاره وأخذا من لمته وألبساه من طرائف ثيابهما وقالا ما كنا لنهدي إلى الملك هدية هي أنفس عنده ولا هو عليها أحسن صفداً من ابن أخته فقد رده الله عليه فخرجا حتى وقفا بباب الملك فبشراه به فسر به وصرفه إلى أمه وقال لهما حكمكما فقالا حكمنا منادمتك ما بقيت وبقينا فلم يزالا نديميه حتى فرق الموت بينهما وهما اللذان عناهما متمم بن نويرة اليربوعي بقوله

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وقد تمثل بهما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وقال أبو خراش الهذلي

ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل

وقال ابن همام الحزين

نحن كنا في التصابي ... مثل ندماني جذيمة
ثم أتى الصرم بيوم ... وتشم يوم حليمة
تفرح ريا يام حتى ... في المودة الغير يمه

وزعموا أن جذيمة كان لا ينادم أحداً أنفة وزهواً وكان يقول أنا أعظم من أن أنادم إلا الفرقدين فكان يشرب كأساً ويصب لكل واحد منهما كأساً فلما أتاه مالك وعقيل بابن أخته وقال لهما حكمكما فقالا منادمتك فنادمهما أربعين سنة ينادمهما ثم إن عمراً رجع إلى أمه فبعثت معه جمرة يقومون عليه في الحمام حتى إذا خرج ألبسته من طرائف ثياب الملك وجعلت في عنقه طوقاً من ذهب لنذر كان عليها ثم أمرته بزيارة خاله فلما رأى خاله لحيته والطوق في عنقه قال شب عمرو عن الطوق فأرسلها مثلاً وأقام عمرو مع الملك حيناً عنه على أمره وكان من أمر جذيمة مع الزباء ما تقدم ذكره واختلف في نسب الزباء

فقيل

١٧٨

فقيل كانت رومية وكانت تتكلم بالعربية ومدائنها على شاطئ الفرات من الجانب الشرقي والغربي وقيل هي بنت عمرو بن ظرب بن حسان من أهل بيت العماليق وفيها جرى المثل فقيل أعز من الزباء والزباء تمر وتقص بمن من جعل من كرها أزب مثل أحمر وحمراء ومن قص جعله زبان مثل غضبى وغضبان وهي التي غزت تدمر ومارد والأبلق وكان مارد مبنياً بأحجار سود والأبلق من حجارة سود وبيض فاستصعبا عليها فقالت تمرد مارد وعز الأبلق وكان من حديث عمرو مع الزباء أنها لما قتلت جذيمة ونجا قصير بن سعد على العصا حسبما تقدم ذكره أورد الخبر على عمرو التنوخي بالحيرة فاشتغل لذلك فقال له قصير اطلب بثأر ابن عمك وإلا سبتك العرب فلم يحفل بذلك فخرج قصير إلى عمرو بن عدي فقال له هل لك أن تطلب بثأر خالك فصوب وجوه الجند إليه ومناهم بالمال وصلاح الحال فانصرف إليه منهم بشر كثير فالتقى هو والتنوخي فلما خافوا اللقاء بايعه التنوخي وتم الأمر لعمرو ابن عدي فقال له قصير انظر فيما وعدتني به من أمر الزباء فقال وكيف أقدر على الزباء وهي أمنع من عقاب الجو فأرسلها مثلاً فقال له قصير اطلب الأمر وخلاك ذم فذهبت مثلاً أيضاً ثم قال له قصير اجدع أنفي واقطع أذني واضرب ظهري حتى تؤثر فيه ودعني وإياها ففعل به عمرو ذلك وقيل إن عمراً أبى أن يفعل ففعل قصير بنفسه ذلك فقيل في المثل لأمر ما جدع قصير أنفه قال المتلمس

ومن طلب الأوتار ما حز أنفه ... قصير وخاض الموت بالسيف بيهس

ثم لحق بالزباء فقال لها أصابني هذا من أجلك قالت وكيف قال إن عمراً زعم أني أشرت على خاله بالخروج إليك حتى فعلت به ما فعلت ثم أحسنت خدمتها وأظهر لها النصيحة حتى تمكن لديها عندها وزين لها التجارة فبعثته معه يبيع إلى العراق فسار قصير إلى عمرو مستخفياً فأخذ منه مالاً وزاد على مالها واشترى لها طرائف من طرائف العراق ثم رجع إليها فأراها تلك الطرائف ففرحت بها ثم كرر كرة أخرى فأضعف لها المال فلما كان في المرة الثالثة اتخذ جوالق وجعل ربطها من داخل الجوالق من أسفلها وأدخل فيها الرجال بالأسلحة وأقبل إليها وأخذ غير الطريق فكان يسير الليل ويكمن النهار وأخذ عمراً معه وكانت الزباء قد صورت لها عمرو قائماً وقاعداً وراكباً واتخذت نفقاً أجرت عليه الماء من العراق من قصرها إلى قصر أختها وتقية تصغي زينب في حرب الزوابر وعمي عنها خبر قصير فسألت عنه فقيل لها أخذ الغوير فقالت عسى الغوير أبؤساً فأرسلتها مثلاً قال ابن الكلبي الغوير ماء لكلب معروف ودخل قصير إلى الزباء وقد تقدم العير فقال قفي فانظري إلى العير من فوق سطحها فجعلت تنظر إلى العير مقبلة تحمل الرجال فقالت يا قصير